رمزية المرأة ودلالاتها في شعر سيد سعيد أبي سامر

The Woman symbol and its implications in Saeid abousamer poetry

د. رسول بلاوي *	ندا بني تميم
r.ballawy@pgu.ac.ir	طالبة دكتوراه في فرع اللغة العربية وآدابها
أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها	ايران
جامعة خليج فارس، بوشهر – إيران	

تاريخ الإرسال: 2020/02/20 تاريخ القبول:2020/04/19 تاريخ النشر: 2020/07/10

الملخص:

المرأة نظراً لأهميتها وثراء مفهومها استخدمها الشعراء حديثاً وقديماً رمزاً للدلالة على معانٍ سامية كلٌ حسب ضالته و نظرته حتى أنّها باتت رمزاً لكثير من المعاني السامية المتعلقة بالأرض و الوطن و الحضارة والحداثة. وبهذا المفهوم قد استخدمها الشاعر المبدع سيد سعيد أبوسامر في ديوانه "قطار الشتائم". جاءت المرأة في هذه المجموعة الشعرية بشتّى مرادفاتها المتمثلة في الحبيبة، والأمّ والجدَّة لتحمل معاني الحداثة والوطن والأصالة بالترتيب. وقد تجلّى توظيف الشاعر لهذا الرمز كأفضل ما يكون؛ إذ اختار مفردة الحبيبة للدلالة على حبّه للحداثة و التطوّر وهو توظيف ناجح نظراً لمطابقته لمنحى الشعراء الكبار في توظيفهم لهذا الرمز من جانب، وربطه المتقن بين صورتي الحبيبة و الحداثة من جانب آخر. كما أنّه أجاد في استخدام رمز الأم للدلالة على الوطن نظراً لما يعرف من أن الوطن هو أمّ وتشابه حالهما في أنّهما ملجأ الإنسان ومأواه حين الأزمات كما أنّ الشاعر نجح في توظيف مفردة الجدّة للدلالة على أصالة الشعب وتاريخه التليد نظراً لما تحمله مفردة الجدَّة من مفهوم تقادم العمر الذي يوحي بالأصالة و التاريخ.

المفردات المفتاحية: رمزية المرأة، سيد سعيد أبو سامر، الحداثة، الوطن، الأصالة.

Abstract:

Women, given their importance and the richness of their concept, were used by poets recently and anciently to symbolize Semitic meanings, each according to its shadow and outlook, so that it has become a symbol of many Semitic meanings related to the land, country, moment, and modernity. In this concept, used by the creative poet saeed abo samar in his collection, The Train of Curses. Women in this poetic group came in various concepts of beloved, mother and grandmother, to bear the meanings of modernity, homeland and genuineness, in order. The poet's employment of this symbol was evident as the best of all, as he chose the beloved singular to signify his love for modernity and development, and it is a successful recruitment due to its conformity to the tendency of the great poets to employ them with the same symbol on one side and the perfect connection between the beloved and the modern on the other side. The poet acted skillfully in using mother symbd to imply homeland due to the similarity between mother and homeland that both are human's shelter while crisis. The poet was succesfull in using the word "grandmother" to imply the originallity of nation and noble history that's because the word a grandmother carries the concept of long life that points out originallity and history.

***Keywords**: women symbol; Saeid abou samer; modernity; homeland; originality.*

* المؤلف المرسل

المقدمة

مما لاشك فيه أنّ المرأة كيان كلّ أمة وكلّ حضارة، وللمرأة قدسية مثل الرجل من حيث المكانة والصورة، فالمرأة هي منبت البشرية ومنشئة أجيالها (قوراري، 2014: 21). لكن صورتها قديماً في المجتمعات المتخلفة كانت سلبية إذا نظر إليها على أنها كائن جنسي وكفى، كان مكانها المنزل إذ كانت تعاني الاضطهاد والتمييز الجنسي فانحطت مكانتها وارتفعت مكانة الرجل فما كانت إلا تابعةً له، فوضع المرأة في المجتمع كانت من أهم القضايا التي شغلت بال الأدباء حيث رأوا إنّ وضعيتها هذه من أكبر أسباب التخلف في العالم الإسلامي، وقد حاول إنقاذ المرأة مما هي فيه من إضطهاد وتهميش لأنّ المرأة هي المكون الرئيسي في بناء المجتمع المستنير القادر على الإنطلاق من قيود الجور والتخلف (ابو العز، 2012م: 234).

لقد كانت المرأة ولا تزال تشكل جوهر الأدب العربي، فالجمال يحرك الجمال، وإذا كان الأدب يكتب بجميل الكلمات فإن المرأة مخلوق جميل بالطبيعة يدفع هذا الأدب ليكون جميلا. وقد إختلف تصوير المرأة عبر العصور من شخص إلى آخر، ومن شخصية أدبية إلى شخصية أدبية أخرى، فبمكانتها المرموقة وبوصفها القطب الثاني في الوجود نجد الإهتمام بها كثيراً من قبل الشعراء، الذين اختلفوا في نظرتهم لها من عصر إلى آخر وقد شغل الحديث عن المرأة والتغني بجمالها مكاناً بارزاً في دواوين الشعر المعاصر.

إتّجه الشعراء من بدء التاريخ إلى المرأة و موضوع المرأة في أشعارهم و منهم من إعتبرها موضوعاً ذا أهمية في الديوان لهذا قلّما نجد شاعراً في العصور التاريخية القديمة يخلو شعره من هذا الموضوع و لأنَّ العاطفة هي إحدى أهمّ كوامن نفس الإنسان فنرى الشاعر يتطرق إلى ذكر المرأة و كأنّه يريد أن ينقل أحاسيسه و عواطفه للآخرين و لكننا نرى أنّ المرأة انحصرت في الشعر العربي القديم في موضوع الغزل و الحبيبة و بعض الأحيان في موضوع الأم و الزوجة. و مع تطور الأغراض الشعرية شاركت المرأة بكافة الأغراض الشعرية من مدحٍ و فخر و هجاء و رثاء لكنّها لا تتعدى كونها حبيبة أو أم و لم تحظَ بصورة المرأة الرمز و لم تخرج من الإطار الحسي لحضورها في الشعر.

كانت عنايةُ الشاعر قديماً بالمرأة وتصويرها تصويراً جسدياً واهتمَّ بها اهتماماً نكاد نقول مبالغاً فيه إذ احتلت مساحةً كبيرةً في الشعر غزلاً ووصفاً، حينما صوَّر جسدَها بكلِّ تفاصيله الأنثوية لشغفه بها وحبه الكبير لها إذ تشكل صورة المرأة في القصيدة القديمة انطلاقاً مما تتميز به من إنفلات وتعدد جغرافية متنوعة للمتعة (أفادية، 1988م: 52). والتأمل، تستدعي تجربة عشقية بالغة العمق (روابنية، 2001م: 313).

لكن صورة المرأة في الشعر العربي الحديث اختلفت عن صورة المرأة في الشعر القديم، حيث بدأت المرأة في هذه المرحلة الشعرية تدخل بحلة جديدة مختلفة عن الصورة التقليدية التي أخذتها في الشعر العربي(عكاش، 2005، موقع الحوار المتمدن). واشتدّ هاجس الرفض عند إحتكاك المرأة أو المجتمع العربي بقيم المجتمع الغربي فتولّد عندها وعند الشريحة المثقفة المساندة لها، الرغبة في الشعور بالحرية ورفض كل القيود التي كان المجتمع العربي القديم يربطها بها وبالتالي دعت إلى حرية مثل حرية المرأة الغربية، نتج عنها مجاراتها لقيم المرأة الغربية.

ولقد عبّرت الأشعار العربية الحديثة عن التحولات الحاصلة في الساحة الإجتماعية العربية وانعكاساتها على الوعي حيث جاءت صورة المرأة فيها لتفصح عن توقها إلى الحرية والتحرر وفق الأنموذج الغرب (بدوي، 2017م: 144). وقد تجلت صورة المرأة في حركة الحداثة الشعرية غير واضحة وضوح صورتها في الكلاسيكية والرومانسية، فالمرأة هناك موضوع قائم بنفسه، يسعى

الشاعر إلى توضيحه من خلال التحليل أو التركيب والكشف عن الإحساسات الدفينة وبيان العلاقة القائمة بينهما، وهي هنا مستوى من مستويات القصيدة، متداخلة في موضوعات عدة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وهي رمز أو معلم من معالم الحياة، يستخدمه الشاعر في مواجهة معالم أخرى في بناء قصيدته بناء عضويا دراميا متكاملا (الموسى، 1991م: 44).

وهنا نقول أن موضوع المرأة في حركة الحداثة أو في القصيدة الحديثة يندمج مع موضوعات أخرى أو يعبر عنها من خلال الرمزية، ولذلك فإن صور المرأة في القصيدة العربية الحديثة جسّدتها المواصفات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وكلها مواصفات أرادت للمرأة أن تكون حجر الكيمياء القارئ لأسرار الحياة والمجتمع (روايتية، 2001م: 315). واندمجت مع الموضوعات الحداثية الأخرى وتنوعت بذلك دلالاتها في أشعار الحداثيين وقد برز من بينها اتجاهان هما:

اتجاه شعرى وعلى راسه بدر شاكر السياب حيث «يصور المرأة على انها الجسد، ويستشف المرء من شعرهم أن شهوة عارمة تصحب صورهم الشعرية، ولكنها مقرونة باليأس والحرمان والانهزام، ولذلك جاءت مختلفة كل الاختلاف عنها في الغزل الصريح المقرون بالأمل والإشباع والانتصار، وليست الشهوة في شعرهم غاية، وإنما هي وسيلة إلى غاية أخرى، فهي شهوة يرافقها التشفي من المجتمع الذي أذله ومن الحرمان الذي قهره» (الموسى، 1991م: 45).

وفي المقابل نجد تياراً شعرياً آخر يصوّر المرأة في شعره كما يحبها هو أو كما يحلم بها، حيث يقول عمار عكاش: «فقد تحولت الحبيبة في معظم الأحيان إلى حلم تعكس محاولة الشاعر رسم تصور معين لأنثاه مفتقد في الواقع، فالشعراء في معظم الأحيان كانوا يتنفسون من خلال قراءاتهم في تصوير علاقتهم بالمرأة بسبب افتقادهم إلى علاقات حقيقية مع الأنثى كونهم جزء من مجتمع شرقي بائس» (المصدر نفسه، 45). و لكن في العصر الحديث قد بدأ الشعراء يغيرون نظرتهم تجاه المرأة و أتخذوها جزءاً أساسياً من المجتمع و أصبحت نظرتهم لها تختلف اختلافاً عميقاً عن نظرة القدماء لها و راحوا يتصارعون في الإختلاف بتناول المرأة فمنهم من استخدمها كمرأة دون أي إضافات و منهم من استخدمها كرمز للوطن و رمز للسعادة و...، فالمرأة عند شعراء النهضة لم تعد وسيلة للإستمتاع و السهر و إنّما دخلت المجتمع و صارت تواكب الأحداث الإجتماعية و تشكل جزءاً مهماً في الحياة بل و أصبحت محوراً رئيساً في القضايا الإجتماعية و لهذا راح الشعراء يطرحون معاناتها و مشاكلها خلال أشعارهم و يحاربون المجتمع من أجلها بكلماتهم.

و بما أنّ الشعر العربي في إيران كان أمتداداً للشعر في العالم العربي نرى كلّ ما يحدث في الأدب العربي له صدىً و إنعكاساً في الأدب العربي الإيراني خاصةً في الأدب الحديث و نلاحظ أنّ هناك تطورات ملفتةً للنظر حدثت في الشعر العربي في إيران من حيث المضمون و الأسلوب وجاءت هذه التطورات مسايرةً لتطورات الشعر في العالم العربي وقد ظهرت هذه التغييرات في أشعار شعراء أهوازيين حاولوا أن يقتربوا من أحداث العصر مع الحفاظ على التراث و الأخذ منه بما يخدم منتجاتهم الأدبية، و كانت قصيدة النثر من ضمن هذه التطورات ولكنّها تعرضت لإنتقادات متكررة جعلتها تنزوي بعض الشيء و لم يهتم بها الشعراء و لا يعيروا لها وزناً و لا إهتماماً كما حدث لها بسائر البلدان غير إنّه ظهر شعراء جدد أخرجوا القصيدة النثرية من إنزوائها و أبدعوا فيها و دسّوا فيها جميع المعاني و الصور البيانية و الإنفعالات النفسية؛ شعراء من مثل سعيد أبي سامر.

فى هذا البحث ألقينا الضوء على بعض قصائد الشاعر سعيد أبي سامر حيث يزخر شعره بالمعاني و المفاهيم التي تدلّ على عمق ثقافة الشاعر و أصالته. الموضوعات في شعر أبي سامر غالباً ما تدور حول المرأة و الوطن و التاريخ و الحب و الماضي و قد كُتبت عنه مقالات عدة تناولت شعره بشكلٍ عام و لم نرَ دراسة مستقلة تتناول المرأة في كتاباته فمن هذا المنظار و لأهمية

دور المرأة في الأدب جاء هذا البحث مسلطاً الضوء على المرأة في أشعار أبي سامر و بعد دراسة ديوانيه " قطار الشتائم و عُد يا مطر " وقع الإختيار على الديوان الأول لتحليل رمزية المرأة فيه وفق المنهج الوصفي – التحليلي.

نحاول في هذا البحث الإجابة عن الأسئلة التالية:

- كيف تجلت المرأة في شعر سطد سعيد أبي سامر؟
- ماهي دلالات رمزية المرأة في شعره؟

نبذة عن حياة الشاعر:

سعيد أبوسامر شاعر و باحث لغوي ولد في الأهواز عام 1983م. والتحق بجامعة شهيد تشمران في الأهواز ليتخرج منها في فرع الترجمة الإنجليزية و من بعد ذلك سافر إلى طهران ليحصل على درجة الماجستير في علوم اللغة و يعملُ حالياً في سلك التعليم المدرسي والجامعي و له عدة دراسات جامعية في مجال اللغة نُشرت في مجلات عالمية و كتاب يختص بتاريخ الأهواز تحت عنوان "سين وجيم لمحات من تاريخنا" و له أيضاً كتاب بحث و دراسة علمية حول أهمية اللغة الأم و تنميتها في الأهواز قيد الطبع. فضلاً عن كتاباته في مجال اللغة والتاريخ فقد جمع وترجم الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر المناضل محمد الماغوط كما صدرت له مجموعة شعرية عام 2013م تحت عنوان "قطار الشتائم" و مجموعة أخرى بعنوان "عُد يا مطر" عام 2018م.

قال عنه علي عبدالحسين «بدأ أبوسامر رحلته الشعرية من مجموعة قطار الشتائم و ها هو في المحطة الثانية: عُد يا مطر و اعتقد أنّ الشعر الجيد ليس غير نتاج عرق الجبين ولم و لن يكون موهبة فحسب، الشعر الجيد يتطلب شاعرية روحية متفجرة كالبركان بفضل الإستمرار و الصقل المباشرين» (عبدالحسين، 2018م: 93).

كما أشرنا سابقاً أنّ أبوسامر شديد الإهتمام لقضايا الوطن و المرأة و هو في شعره يجعل المرأة متكأً لرسالته التي يريدُ إيصالها للمتلقي فنراه أحياناً يذكر المرأة و لا يقصد المرأة ذاتها و إنّما يستخدمها كرمز لما يدور في ذهنه فقد ظهرت المرأة في شعره بشتّى مرادفاتها المتمثلة في الحبيبة، والأمّ والجدَّة لتحمل معاني الحداثة والوطن والأصالة العريقة على التوالي.

دلالة المرأة فى شعر أبي سامر:

ينحو الشاعر سعيد أبو سامر في شعره الغزلي منحى اتجاه الغزل الفلسطيني الذى يربط بين صورة المرأة والدلالات الإجتماعية والقضايا الحداثية فنرى شاعرنا يربط في شعره بين ذات المرأة و قضايا التحضر والوطن والاصالة. فقد كانت هذه القضايا هي التي حدَّت الشاعر إلى انشاد الشعر الغزلي حتى يمكننا القول أنّ المرأة في الشعر ليست هدفاً وقد لا تكون امرأة واقعية، أي ليست امرأة بعينها بقدر ماهي رمز. وقد تجلى هذا الاتجاه أكثر ما تجلى في شعر المقاومة الفلسطينية إذ رمزت المرأة للوطن، والارض، والبلاد....، وهي في بعض الأحيان تجسيد للتراث العربي (قوراري، 2014: 45).

وقد أتت المرأة بشتّى مرادفاتها المتمثلة في الحبيبة، والامّ والجدة لتحمل معاني الحداثة والوطن والاصالة بالترتيب. وقد تجلى توظيف الشاعر لهذه الرمز كأفضل ما يكون؛ إذ اختار مفردة الحبيبة للدلالة على حبّه للحداثة والتطوّر وهو توظيف ناجح نظراً لمطابقته لمنحى الشعراء الكبار في توظيفهم لهذا الرمز من جانب، وربطه المتقن بين صورتي الحبيبة والحداثة من جانب آخر. كما أنّه أجاد في استخدام رمز الأم للدلالة على الوطن نظراً لما يعرف من أنّ الوطن هو أمّ وتشابه حالهما في أنهما ملجأ الإنسان ومأواه حين الأزمات. كما أنّ الشاعر نجح في توظيف مفردة الجدَّة للدلالة على أصالة الشعب وتاريخه التليد نظراً لما تحمله مفردة الجدَّة من مفهوم تقادم العمر الذي يوحي بالأصالة والتاريخ.

المرأة الحبيبة/ الحداثة

أكثر صور المرأة بروزاً في الشعر العربي، هي صورة المرأة الحبيبة، فالحب طريق أو تعبير عن العاطفة الإنسانية (المصدر نفسه، 33)، فقد وعى الشاعر المعاصر وضع المرأة في المجتمع وأدرك أنّ تهميشها من أكبر عوامل التخلف في العالم الإسلامي، لذا قد حاول إنقاذ المرأة مما هي فيه من اضطهاد وتهميش «لأنَّ المرأة هي المكون الرئيسي في بناء المجتمع المستنير القادر على الإنطلاق من قيود الجور والتخلف» (ابو العز، 2012م: 234).

لذا وفق هذه الرؤية برزت هذه المفردة رمزاً يدلُّ على الحداثة والحضارة في عدة قصائد أبرزها قصيدة "**أمنيةُ شاعر مُتعَب**" فقد جمع الشاعر في هذه القصيدة بين صورتي المرأة والحداثة وبذلك استطاع أن يعبر عن حبِّه للتحضر من خلال حبِّه للحبيبة.

نشاهد في قصيدة **أمنية شاعر متعب** شاعرنا وهو يتحدث عن فتاته المثالية التي طالما شغلت باله وصورها في شعره لكن شعبه الأهوازي نظراً لتقيّده ومنهجه المحافظ عزف عن تلك القصائد الغرامية وهجرها بحكم نظرته المحافظة على تقاليد الشرف التليد:

لم يَطرق أحدٌ باب قصائدي
المفعمةِ بذكرى فتاة أحببتها ذات يوم
المفعمةِ بأقوالٍ تسيرُ في حافلات الخيال
من حانة إلى حانة
و من وطنٍ إلى وطن
لم يطرق أحدٌ باب لساني
الذي تلعثم لحبِّ امرأة عارية الشفتين
أجلسُ مع وحدتي
كبومةٍ كسولةٍ غافية
كزعيمٍ قرشيٍّ مهزومٍ في معركةِ جنون
أجلسُ مع وحدتي (أبو سامر، 1392ش: 11).

وهنا في المقطع الأول من القصيدة نشاهد ملاحظتين في غاية الأهمية، الأولى هي أنّ الشاعر لا يريدُ حبّاً تقليدياً وإنّما حبيبته عارية الشفتين حديثة متحررة من قيود الشرف التليد (كما هو معروف لدى الشعب المحافظ) لكنّه في الأخير يعترف بكل جسارة بهزيمته أمام التيار المحافظ ويصور نفسه كزعيم قرشي مهزوم في معركة الحبّ الذي يعتبره الشعب جنون وفي تصوير الشاعر لنفسه على أنّه قرشي دلالة على تأكيد الشاعر على أصالته أمام الذين يرمونه بالتحلل الخلقي والإنبهار الثقافي وأخذه للتقاليد الأجنبية في موضوع الحب وهو بإختياره لهذا الإسم إنّما يصرُ على أصالته وعلى ما يجب أن يكون عليه الشعب العربي الأهوازي وبذلك فإنّ هذه الكلمة تضمُّ في دفاتها صراعاً ثقافياً مُرَّاً.

ثم في الشق الثاني من القصيدة نرى الشاعر بعد انهزامه أمام التيار المحافظ يلجأ إلى خياله فيسترسل في أحلامه ليخفف بذلك عن كبته و قهره فنراه يرسم في مخيلته مركباً ينقله من مستنقعات العادات البالية إلى أحضان عالم أوسع يتقبل الحب المتحرر

الحديث فيراه فيه شعبه وهو يعبر عن وده وحنانه إزاء الآخر ويتمنى لو كان وطنه بعيداً عن ربقة العادات القبلية فيسمح للعشاق بالتعبير الصريح عن حبهم وصبابتهم.

يوماً فيوماً
أرسمُ مركباً
ينقلني من المستنقعات اليائسة
إلى عالمٍ أكبر
حيثُ أبي فيه
يُقبّلُ أمّي و أمّي تقبّلُ أبي
حيثُ الناس فيه
مبلّلونَ بالمطرِ و المحبّة
باحثون عن الوطن.
آملُ في زورقٍ
يقودني إلى بقعةٍ
حيثُ حبيبتي فيه حمامة ترفرف
خارجَ زنزانةِ العشيرة
تتألّقُ في مساءٍ كاروني حزين
كي تقبّل شفاهي الدّبقة (المصدر نفسه: 12 و13).

ثمّ في القسم الأخير من قصيدته نراه يستعيد قواه ويصور معركته مع أصحاب تلك الفكرة الآسنة فنراه يتمنى لو استطاع أن يفهم شعبه بجمالية الحب لكن ديدان التقليد وفئران المحافظة يمنعون من وصول صوت الشاعر إلى شعبه ويحولون دون وعيه الحداثي فيحاربون الشاعر بسيوفهم البربرية ويرمون الإيقاع به لكنه يبقى صامداً أمام كيدهم جباراً شامخاً يمشي و رأسه مرفوع في السماء لأنّه مؤمن بحيازة المستقبل الذي ينصره على هؤلاء المعاكسين وفشل محاولتهم في منع بزوغ شمس الحضارة وتعثير الشاعر بعراقيلهم.

آملُ في كتابةِ شعرٍ
يرسلُ رسالةَ فؤداي المصلوبِ
على بوّابةِ زقاقِنا
إلى شعبي الناعسة عيونه
في الليلِ و النهار
إلى العاقّين.
كثيرةٌ هي الديدانُ و الفئرانُ
التي تقيمُ جلسات سرية
لتمزيق سفن أحلامي

و كثيرةٌ هي السيوفُ البربريّة
التي تأملُ معانقةَ رقَبتِي،
لكنّني على كلِّ الرمالِ المحشوّة بالأدغال والبصاق
والمحترقةِ بالشّمس
وغضبِ الملايين
وجنبَ المياه الملطّخة بالملح والنفط والجرب
أمشي وعيوني في النّجوم
إنّ خطواتي البطيئة الجرباء
تدخل يوماً ما مدينة النّجوم.
يا ربّ...
يا ربّ...
إنّني لا أُرثي مُرَّ حزني إليك ولا أريد أن أثيرك ضدَّ شعبي
إنَّ حروفي الملتصقة بحبرِ الدّموع المدرارة
بغير سيفٍ ولا جَواد
ستكسر أسوار الجروحِ العالية
و ستغلب الحضارة (المصدر نفسه: 13 14).

وهكذا في الختام نرى قد ربط الشاعر بين حبيبته والحضارة وهو بذلك جعل من حبيبته رمزاً للحداثة والحضارة وهي أولى الدلالات لهذه المفردة في ديوانه. فقد وعى الشاعر وضع المرأة في المجتمع وأدرك أن تهميشها من أكبر عوامل التخلف في العالم العربي، لذا قد حاول إنقاذ المرأة مما هي فيه من إضطهاد وتهميش.

رمزية الأم/ الوطن

كان الشعراء وما زالوا مصدر حياة أو موت لأوطانهم، فكل واحد يتغنى بوطنه سواء كان يعيش فيه أو مغترباً عنه، يعيش في المنفى بعيداً عن الأرض التي احتضنت طفولته. وقد عبّر الشعراء عن الوطن بالأم لعظيم مكانتها في القلوب. وقد كان العرب يعظمون الأم منذ القدم وقد كان للأمومة في الشعر العربي مكانة مقدسة لدى الشعراء نظراً للمكانة السامية التي اعطتها إياها العقائد السماوية والقوانين الوضعية بصفتها أمّاً أولاً وامرأة ثانياً؛ وتناولها الشعراء رمزاً للعطف والحنان والجمال، كظاهرة إنسانية وجب أن تطعى لها حقوقها كاملة ليرقى المجتمع وتتطور ذهنيات أفراده (معماش، 2006م: 146).

وحول رمز المرأة في الشعر يقول الدكتور محمد ناصر «ولما استخدم هذا الرمز في القصيدة التقليدية ضمير لمؤنث في مخاطبة الوطن بطريقة مباشرة، أما في القصيدة المعاصرة، فقد إبتعد هذا الرمز عن التقرير، وأصبح الشعراء يصفون الوطن بكل الصفات التي لا يمكن أن تمتلكها أو تتصف بها سوى المرأة» (عبدالهادي، دون تا: 3).

وقد ربط شاعرنا أبو سامر بين مفردة الأمّ و الوطن على إعتبار «أنّ الوطن هو الأم التى ترضع أطفالها وتطعم أبناءها من خيراتها دون أن تمس كرامتهم بسوء لأنهم أبناءها» (شاكر، 2014م: 31). وقد كان المزج بين الأم والوطن في شعره يمد تجاربه الفنية بنفس عاطفي، يولد

تلك الرؤية الحية، حيث تتحول القصيدة إلى ومضة حلم، يتميز فيه الحب بالوطنية، وتمتزج فيه صورة الأم بالوطن، فلا يعود باستطاعة أحد أن يفرق بين عاطفة الحب نحو الأم، وبين عاطفة الحب نحو الأرض والوطن.

وكما أشرنا فانّ الدلالة الثانية لمفردة المرأة (الأم) في ديوان الشاعر فهي الوطن وقد أجاد الشاعر في اختيار هذه المفردة للدلالة على الوطن إذ هناك وشائج كثيرة وتشابه كبير بين الأم والوطن فالأم هي التي يلجأ إليها الطفل ويحن إليها كما هو حال الشاعر مع وطنه فهو يهرع إليه لأنَّه بغيته وأمله الوحيد في الحياة وهمّه الأوحد في دنياه؛ فلذا نرى الشاعر يصور الوطن بصورة الأم ويضفي عليه من صفات الأمومة ما يجمعهما ويمزجهما حتى يصعب بعد ذلك التفريق بينهما.

وقد تجلى رمز الأم/ الوطن في قصيدتين من قصائده وقد حمل هذا الرمز بجانب دلالته على الوطن، كل الهموم والمعاناة التي يقاسيها الشاعر في أرضه. فنراه في قصيدته الأولى "رصاصة الخلاص" يصوّر أمَّه/ وطنه وهي ضعيفة الحال لا تستطيع أن ترضع طفلها لفداحة الحال لذلك يطلب رصاصة الخلاص لكي يتخلص من همومه ومعاناته، و من هيمنة التخلف السائد في الوطن ويودّ لو لم يكن ينتمي لعالم الحضارة الذي لم يتحقق في بلده ويتخلص من لسانه الذي ينفث حشاشة النفس على الأوراق:

إنّي سأطلقُ نفسي في أزقّة البداوة يوماً
و أقتلُ الخيال اللّعين
و أهدمُ كلّ أبراج الحضارة البيضاء
التي رفعتها فوق شَعري
و أشنقُ لساني الملتهب الطويل.
لساني الملغم في فمي كقنبلة متعددة الرؤوس
لا بدَّ أن يترك توزيع الرّعب و الغثيان و الشّعر
في جماجم الرّاقدين.
مرضتُ و بدأت أتقيأ ورقاً
أتقيأ كلمات أتعبت أمعائي
يداي بدأت ترتجفُ من قبضةِ القلمِ المسلوخ (أبو سامر، 1392ش: 15).

لكن الشاعر سرعان ما يستعيد قواه ويخرج من التذمر فنراه يصور حلمه المستقبلي المشرق في تخلص الوطن من ربقة التخلف والتردي الثقافي فيصور دماغه وقد اكتظّ بصور الخيل العربية والثائرين على ظهورها لكي تقضي على حماة التقليد والعادات لكنّه في الختام يصور الوطن وقد انحاز قسراً إلى التيار المحافظ حتّى أنّه بدل أن يسأم من دعاة التقليد سئم من دعاة الحداثة والتثقف وترك أبناءه المتنورين يتضورون حرقة وأبعدهم من حضنه الحاني حتى بات الوطن في نظرهم صحراء قاحلة وفي ذلك قمة الأسى:

و في دماغي خيال خيلٍ..
خيال صهيل يسمعهُ الإله..
خيال وسادات غريبة..
و خيال ثائرين..
و عظامي المتقلقلة
المكسوّةُ بالخيبة و الحروف

المطروحة على السرير
ترسلُ إشاراتٍ إلى ملك الموت
و إلى رمادِ مئات الميّتين.
سئُمَت أمّي من إصفراري المفرط
و بدأت لا تنشدُ أنشودةَ الأمومة
أمّي بدأت تنامُ قبلي.
تركَتني أمّي في المدينة الهوجاءِ اليابسةِ الشفاه
و بدأتُ أرضعُ من ثدي قارورةِ الحبر
و كبرتُ على صدرِها الإفريقيَّ الحزين (المصدر نفسه، 16)

ثم في القصيدة الثانية المعنونة بـ"غباء الأم" يصوّر مرة أخرى الوطن وقد جار في حق شريحة المتنورين فنشاهد الأم الوطن وهي تنصح ابنها بالنوم وفي ذلك دلالة على نهيه عن مسيرته الحداثية وتطلعه لمسايرة التنوير الثقافي:

أغمض عينيك يا صغيري لتنام...
أغمض عينيكَ يا صغيري...
هذهِ كلماتُ أمّي
حين ولدتُ و حين أموتُ و حين أُبعثُ حيّا (المصدر نفسه: 80)

وقد تكون القصيدة تحمل دلالة أخرى معاكسة تماماً؛ فقد يحتمل أن يكون الشاعر قد أراد أن يصور وطنه وهو في قمة تدهوره وفقره لا يملك ما يعيل به أبناءه حتى أنَّه بات يطلب منهم أن يناموا نظراً لضيق يده وقلة حيلته.

المرأة الجدة/ الأصالة العريقة

ومن دلالات رمزية المرأة في شعر أبي سامر هي المجد العريق والأصالة التليدة والتاريخ الفاخر كما نرى الشاعر في قصيدة "جدتي" يستخدم رمز الجدَّة وهي إحدى إشتقاقات المرأة للتعبير عن هذه الدلالة وقد أجاد في ذلك لأنّ مفردة الجدة نظراً لتقادم عمر الجدة تدلُّ في ذاتها على التاريخ و الأصالة وهذا ما رام الشاعر التعبير عنه. يبدأ الشاعر قصيدته بمرافقته جدَّته وهي تدخن السجائر باستمرار وهو بذلك يصوّر حزنها وأساها على ما أصاب قومها ثم يصرّح بذلك فإذا الجدة تتأوه وتسبح لله علّه يفرج همّها في قومها وهي تستعيد ذكرى تاريخ أجدادها الذين حاربوا الإستعمار والإحتلال الإنجليزى حرصاً على أرضهم وضحّوا بأنفسهم في سبيل أصالتهم فتسجّل بذلك تاريخهم المجيد:

كنتُ أجلسُ مع فخامةِ جدّتي
و أدخّنُ قبح حياتي
سيجارةً بعد سيجارة.
جدّتي تتأوه
و بمسبحتها السوداءِ الطويلة
في الصباح و المساء

تسبّحُ ضربات سياط الزمانِ الفَ مرة
جدّتي اللابسةُ الأسود لباساً طوالَ أيامِ السّنة
كانت تتأوّه...
كانت تدخّن...
كانت كلماتُها المحشوّةِ بالدّخانِ تتساقط
تساقطَ العرقِ من تلال جبينِ فلّاحٍ في مزرعةِ مجد.
وجه جدّتي المتكَسّرُ يُرجّعُ صدى مآسي تسعينَ سنة
و جسمها الهزيل
يروي حكايات الدّماءِ المسلوبة
حكايات زوجِها البطل الذى جاهدَ
ضد الإنجليز
في معارك الجهاد
حكايات أبيها الصقر الذي أسرجَ الجياد
و قادَ الجنود
في معاركِ المجد (المصدر نفسه: 20 و 21)

كما يلاحظ أن الشاعر رسم صورة جدته وهي في غاية حزنها، فهي من جانب تدخن وفي ذلك دلالة على شدة حزنها ومن جانب آخر قد لبست السواد وفي ذلك دلالة على كثرة مصابها على قومها حتى أنها باتت لا تنزع السواد حداداً عليهم وفي الأخير وصفها بأنها هزيلة وفي ذلك دلالة على تعاسة حياتها فقد انهكها الحزن و المآسي فباتت هزيلة خاوية.

لكن الشاعر على عادته رغم المآسي التي يصورها في شعره لا يستسلم ويختم قصيدته بالأمل والمستقبل الواعد ويتشبث بأصالته رغم كلّ الأزمات:

لكنَّ عينيها المتسعتينِ اتسّاعَ السّماء
كانت شجاعةً لا تدمع
جدّتي لا تبكي
شيخةٌ منحنيةُ الظهر
تعانقُ المراثيّ
لكنّها لا تبكي.
ثمّةَ عويلٌ..
و ثمّةَ بكاءٌ..
و دموعٌ من جنسِ المطر
يجتاحُ حنجرتَها المسترجلة
لكنها لا تبكي...

تقرعُ بمضربِها على طبلِ رأسي
و تضخُّ الزيتَ في فانوسِ عقلي
و تصفعُ خيالي...
كانت تخبرني
بقبحِ القرون الخالية..
بالستائرِ الممزّقة..
بالرّقابِ المسلسلة..
بالجميلاتِ المخضّبة..
و بالمضاجعِ الفاضية..
جدّتي كانت تقول:
إنّنا نسكنُ قرب قبر الربيع
لكننا لا نموت...
قدرُنا أن نبقى
في ظلامِ الكهوف المتعَبه..
قدرُنا أن لا نأكل إلا الكَبت و التسكّع..
قدرنا أن نبقى في المعلّبات
نائمين تائهين..
قدرُنا أن نكونَ جالسين تحتَ ظلِّ الموت
لكنّنا لا نموت (المصدر نفسه: 21 – 24)

فالشاعر يعبّر عن هذه المعاني من خلال تصوير جدته وعيناها متسعتان لأنّها تتطلع إلى المستقبل المشرق وهي شجاعة لا تركن إلى الإستسلام والخور والبكاء رغم انحناء ظهرها بفعل المشقّات. بجانب ذلك هي تجابه مآسيها بصمود أسطوري وتكافح القدر بقلب راسخ لا يرضخ وفي الأخير تخبر حفيدها أنّها قد عاشت بجانب قبر الربيع وفي ذلك دلالة على أنّها لم تذق من الحياة الجميلة إلّا مرارتها و تنصحه في الختام بضرورة الثبات والصمود أمام هذه المآسي والتمتع بالحياة رغم كل التعاسات، والتمسك بالأصالة مهما جار الزمن وأهله:

النتائج

إتّجه الشعراء من بدء التاريخ إلى المرأة و موضوع المرأة في أشعارهم و منهم من إعتبرها موضوعاً ذا أهمية في الديوان لهذا قلّما نجد شاعراً في العصور التاريخية القديمة يخلو شعره من هذا الموضوع و لأنَّ العاطفة هي إحدى أهمّ كوامن نفس الإنسان فنرى الشاعر يتطرق إلى ذكر المرأة و كأنّه يريد أن ينقل أحاسيسه و عواطفه للآخرين و لكننا نرى أنّ المرأة انحصرت في الشعر العربي القديم في موضوع الغزل و الحبيبة و بعض الأحيان في موضوع الأم و الزوجة. و مع تطور الأغراض الشعرية شاركت المرأة بكافة الأغراض

الشعرية من مدحٍ و فخر و هجاء و رثاء لكنّها لا تتعدى كونها حبيبة أو أم و لم تحظَ بصورة المرأة الرمز و لم تخرج من الإطار الحسي لحضورها في الشعر.

أكثر صور المرأة بروزاً في الشعر العربي، هي صورة المرأة الحبيبة، فالحب طريق أو تعبير عن العاطفة الإنسانية، فقد وعى الشاعر الحديث وضع المرأة في المجتمع وأدرك أن تهميشها من أكبر أسباب التخلف في العالم العربي، لذا حاول إنقاذ المرأة مما هي فيه من إضطهاد وتهميش؛ لذا وفق هذه الرؤية برزت هذه المفردة رمزاً يدلّ على الحداثة والحضارة في عدة قصائد أبرزها قصيدة (أمنية شاعر متعب) فقد جمع الشاعر في هذه القصيدة بين صورتي المرأة والحداثة وبذلك استطاع أن يعبر عن حبِّه للتحضر من خلال حبِّه للحبيبة.

الدلالة الثانية لرمز المرأة في شعره فهي الوطن. فقد ربط شاعرنا أبو سامر بين مفردة الأمّ و الوطن على إعتبار أنّ الوطن هو الأم التي تعتني بأطفالها. كان المزج بين الأم والوطن في شعره يمد تجاربه الفنية بنفس عاطفي، حيث يمتزج في القصيدة الحب بالوطنية، وتمتزج صورة الأم بالوطن، فلا يعود باستطاعة أحد أن يفرّق بين عاطفة الحب نحو الأم، وبين عاطفة الحب نحو الأرض والوطن.

أمّا الدلالة الثالثة لرمز المرأة في شعر أبي سامر فقد تجلت في المجد السامق والأصالة التليدة والتاريخ الفاخر كما نرى الشاعر في قصيدة "جدَّتي" يستخدم رمز الجدَّة وهي إحدى اشتقاقات المرأة للتعبير عن هذه الدلالة وقد أجاد في ذلك لأنَّ مفردة الجدة نظراً لتقادم عمر الجدة تدلُّ في ذاتها على العراقة التاريخية والأصالة وهذا ما رام الشاعر التعبير عنه.

المصادر

- أبوسامر، سعيد، قطار الشتائم، عبادان، هرمنويطيقا للنشر والتوزيع، ط 1، 1392 هـ.ش.
- أبو العز، عزمي زكريا، الفكر العربي الحديث والمعاصر، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، سنة 1433هـ- 2012م.
- أفاية، محمد نور الدين، الهوية والإختلاف في المرأة: الكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1988م.
- بدوي، عبده، دراسات في النص الشعري: العصر الحديث، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 2007 م.
- رواينية، حفيظة، صورة المرأة ودلالاتها في ثلاث مقطوعات شعرية جاهلية، جامعة عنابة- الجزائر، دراسات في اللغة والأدب، 2001 م.
- شاكر، تهاني، محمود درويش ناثراً، الأردن، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، 2004 م.
- عبدالحسين، علي، مجموعة عد يا مطر للشاعر سعيد أبي سامر، إيران، مجلة حبر أبيض، العدد ١٠، يناير ٢٠١٨م.
- عبدالهادى، محمد، تجليات رمز المرأة في شعر محمود درويش، قسم الأدب العربي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية والإجتماعية، دون تا.
- عكاش، عمار، صورة المرأة في الشعر العربي المعاصر، الحوار المتمدن، العدد:1131-8/3/2005.

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=33170

- قوراري، شفية، صورة المرأة في الشعر الجزايري، الجزائر، جامعة العربي أبو مهيدي، رسالة ماجستير، 2014 م.
- معماش، ناصر، النص الشعري النسوي في الجزائر، الجزاير، دار المدى الثقافية، 2006 م.
- الموسى، خليل، الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر، دمشق، مطبعة الجمهورية، ط1، 1991م.